الفصل الثاني والخمسون

فرنسيس فتح الله مراش

هو فرنسيس بن فتح الله مراش، ولد بمدينة حلب في ٢٩ يونية سنة ١٨٣٦م، من أرومة طيبة الأصل، ولما بلغ الرابعة من عمره أصيب بداء الحصبة، وثقلت وطأتها عليه حتى كادت تودي به، ثم منَّ الله عليه بالشفاء، إلا أنه بقي من آثارها في جسمه وبصره ما نغص عليه عيشه، وأوهن قواه مدى العمر، ولبث في حلب إلى أن يفع يتلقن القراءة ثم مبادئ العلوم، إلى أن كانت سنة ١٨٥٠م، فسار والده إلى أوربا واستصحبه معه، فتجول فيها مدة تنيف على السنة، ثم رأى والده أن يطيل مكثه في فرنسا لضرورة دعت إلى ذلك، فأرجعه إلى حلب وبقي فيها إلى سنة ١٨٥٣م.

ولما عاد والده من أوربا في هذه السنة دعته مقتضيات تجارته إلى التعرج على بيروت، فعرج عليها واستدعاه من حلب، فسار منها إلى بيروت، وأقام بها معه نحوًا من سنة، ثم عاد إلى مسقط رأسه وألقى به عصا التسيار مدة مديدة، وأقبل يشتغل في خلالها بالأدب، وهو الفن الذي كان قد ولع به منذ صبوته، حتى إنه عرف له نظم على طريقة الصبيان، نظمه وهو ابن تسع سنين ودونها، ولكنه لم يقصر درسه على الأدب وحده، بل أقبل يدرس غيره من العلوم، وكان يتخرَّج في كل علم منها على من يلقاه من الأساتذة، ولما رأى آخر الأمر أن علم الطب لا يبلغ أحدٌ منه إربًا ما لم ينل الإجازة فيتعاطيه عملًا، وتيقن أن أعظم الإجازات اعتبارًا في تلك الأيام ما كان صادرًا منها من مدرسة باريز، رحل في طلب ذلك إلى هذه المدينة حوالي سنة ١٨٦٧م، وأقام بها نحوًا من سنتين يتردد على مدرسة الطب فيها إتمامًا لدروسه واستعدادًا للامتحان، ولكن صروف الدهر عاندته وخانته الجدود العواثر من وجوهٍ أخرى، فاعتراه من أسقام البدن وضعف البصر ما صرفه عن المثابرة على الدرس، فلم يظفر بمراده من التقدم

للفحص لنيل الإجازة، بل اضطر أن يقفل راجعًا إلى حلب وهو عليل ومكفوف البصر أو يكاد، ولم يزل مقيمًا بحلب إلى أن توفاه الله في أواسط سنة ١٨٧٣م.

فرنسيس فتح الله مراش ١٨٣٦–١٨٧٣م.

أما تصانيفه، فالمطبوع منها «غابة الحق» و«مشهد الأحوال»، وكلاهما مطبوع في بيروت، وله ديوان سمَّاه «مرآة الحسناء» أرسله بحياته إلى المرحوم سليم البستاني فطبعه له في مطبعة المعارف في بيروت، أما الكتابان الأولان فقد سلك فيهما مسالك فلسفية، وبث فيهما آراءه بأسلوب بديع، صنف معظم الأول منهما في باريز والثاني في حلب، وله أيضًا رسائل موجزة في مواضيع شتى، ولكنها لم تطبع، فلذلك لم تُعرَف، وله رحلة إلى باريس طبعت في بيروت، وشهادة الطبيعة بوجود الله والشريعة، طبعت بمطبعة الأميركان بعد نشرها في النشرة الأسبوعية، وله غرائب الصدف، وغيرها من الرسائل.

وكان في الجملة مشاركًا في كثير من العلوم، إلا أنه كان إلى العلوم الفلسفية أميل، وكان يؤثرها على العلوم الرياضية وغيرها؛ لما في تلك من سعة المجال للخواطر، ولما في

هذه من ضيق المجال وحرج القيود والقوانين على من يريد أن يقتدح زناد نفسه، فإنه كان لا يطيق احتمال الأسر المعنوي فضلًا عن الحسي؛ ولذا كان يحاول التملص من رق العادات الجازمة بحجز حرية التصرف، بل طالما كان ينزع إلى الإغضاء عن قيود اللغة وأغلال قوانينها وسلاسل قواعدها أيضًا، حتى صار قليل الالتفات إلى تحرير أساليبه وتنقيح عباراته على ما تقتضيه أصول الإنشاء.

إلا أنه كان يعرف حق المعرفة أن الحرية المطلقة هي كالكبريت الأحمر، لا تقوم إلا في الذهن، ولا وجود لها في الخارج، وهذا ما حداه إلى أن يقول:

رقُّ الزمان جوى على كل الورى واقتادهم بسلاسلٍ وقيودِ
رسفَ الأمير مكبلًا بنضاره رسفَ الأمير مكبلًا بنضاره

وأن يقول:

صدِّقوني كل الأنام سواءٌ من ملوكٍ إلى رعاة البهائم
كل نفسٍ لها سرورٌ وحزنٌ لا تنني في ولائمٍ أو مآتم
كم أميرٍ في دسته بات يشقى باله والأسيرُ في القيد ناعم
أصغر الخلق مثل أكبرها جر مًا لهذا وذا مزايا تلائم
هذه النمل تستطيع الذي تعجز عن فعله الأسود الضياغم
والخلايا للنحل أعجب صنعًا من قصور الملوك ذات الدعائم

وكان مَن أنعم النظر في تصانيفه خيِّل له أنه لم يكن في كل الأحوال راضيًا عن الزمان وأهله، وأنه كان كثير التبرُّم بالناس والأشياء كافة، وأن كلامه في كثير من المواطن يشفُّ عن الشكوى من الدنيا وأهلها، وهذا لا يستغرب من رجلٍ رماه الدهر بالأرزاء حتى أصبح كئيبًا كاسف البال، وقد حداه ذلك إلى أن قال:

توتر أقواس الردى لرمايتي ومن أعين الحساد تبرى سهامها
يجرُّ عليَّ الدهر جيش خطوبه فتلقاه نفسٌ يستحيل انهزامها
ومن خبِّر الدنيا وأدرك سرها تساوى لديه حربها وسلامها

ومن هذا القبيل ما أورده في «غابة الحق»:

إذا كان وقع السيف ليس يمضني ... فعندي سواءٌ غمده وغراره
وإن كان جمر الخطب ليس يصيبني ... فلا خوف لي مهما يهبُّ شراره
أنا لا أرى في الأرض شيئًا يروقني ... لذلك نور العمر عندي ناره
أيطربني هذا الزمان وكله ... عراكٌ على الدنيا يثور غباره

هذا ما يلمح من خلال نظمه ونثره، إلا أنه كان في معاشرة الناس ومخالطتهم متوددًا أنيسًا، تأبى نفسه أن يصيب الناس أذىً مما ابتلاه الله به من الأشجان، وكان إذا عنَّ له خاطر أملاه على كاتب أو صديق، وتوفاه الله وهو في شرخ الشباب.

ومن نظمه قوله من قصيدة:

أنا على ما أنا من الخلق ... باقٍ على مذهبي وفي طرقي
ما لي عدوٌّ سوى الكذوب فلم ... يزل عدوًّا لصاحب الصدق
لا أكذب الله أن لي شيمًا ... تحمي فمي من شوائب الملق
فلا كبيرٌ سطا عليَّ ولا ... يدٌ لها منة على عنقي
ولا تسابقتُ في المفاخر بل ... سرت الهوينا وفزت بالسبقِ
ولا اشتريت الثناء من أحد ... بالمال بل بالجهاد والأرق
أسقي غروسي فإن أجد ثمرًا ... أقطف وإلا رضيت بالورق

وقال في وصف الجمال:

يا ربة الحسن جمالك لا ... يدوم إلا كدوام الخيال
فحسن وجه ذاهبٌ كالهبا ... وحسن طبع راسخ كالجبال
فجملي الطبع وحلي النهى ... لتقتني الحسن العديم الزوال
هذا هو الحسن البسيط وما ... للجوهر البسيط قط انحلال

ومن هذا القبيل قوله:

طرقت خباها بغتة يوم تبكير فصبَّحني وجه كرقعة تصوير
هناك على المرآة كانت مكبَّة تموِّه خديها بصبغة حنجور
فأيقنت أني في الهوى كنت والعًا بمسحوق تبييض ومحلول تحمير